مطارحات الشيب والشباب
فى شعر البحترى

لحديث الشيب والشباب مكان مهم فى القصيدة العربية الموروثة ، وبخاصة فى الجانب الوجدانى منها ، لأن الشعراء جعلوا من هذا الحديث مدخلا للتعبير عما تضطرب به نفوسهم ويتوارد على خواطرهم من أحاسيس ومشاعر ، وما يخالج وجداناتهم من آمال وأمانى مما يحسه كل إنسان وتتوق نفسه لتحقيقه وهذه المعانى التي يشترك الناس فى الاحساس بها والتأثر بنداءاتها يكون الشاعر النابغ أقدر على تصويرها والتعبير عنها .

لقد ارتبط الحديث عن الشباب فى الشعر العربى بمعانى الاقبال والتطلع للمستقبل والاستبشار بتحقيق الآمال والظفر ببلوغ المطامح ، وأكثر ما يكون استدعاء هذه الخواطر وتواردها على مخيلة الشاعر فى مواطن الغزل والصبوة واجترار ذكريات الصبا ووقدة الشباب وتوهج المشاعر وانفساح الآمال ، وفيض النشاط الذى يحسه الشاب فيعيش فى أجوائه وكأن أمتداد الأفق يضيق عن تطلعاته راسما لنفسه عالما مثاليا لا يعرف الحدود ولا مكان فيه للمعاناة على أية صورة من صورها ، فهو سرور دائم وحبور موصول .

وبعيد مرحله الشباب الأولي التي ينعتها الشعراء بريعان الشباب أو أول الشباب يكون تحمل أعباء الحياة ومسئولياتها وإفاقة من سكرة الصبا وطيش الشباب وفى تلك المرحلة الدقيقة يكون لزماً على الشاب أن ينصهر

فى بوتقة البنية الإجتماعية بما يجرى فى تكوينها من تقاليد ، وما تفرضه من أعباء ، ثم تتفتح عين الشاب على ظواهر الحياة الاجتماعية بخيرها وشرها ، ومثالياتها وسلبياتها ، فيرى الشاب حياة الناس حافلة بالختل والزيف والنفاق والرياء ، ويراها تتقاضاه شيئاً من الرياء والمصانعة وقدراً من المداراة والمداجاة . . إلى غير ذلك من الظواهر التي تدخل الحيف على الصورة المثالية التي كانت مرتسمة في ذهن الشاب ، ومن ثم يبدأ الصدام الذى تتولد منه الشكوى وينبعث البكاء على أيام الصبا وباكورة الشباب .

وفي الشيب يكون التوقر والترفع عن اللمم والانصراف عن اللهو العابث ، وعن لذائذ الحياة وشهواتها ، وفيه كذلك يكون الانحدار إلى سفح الحياة نحو النهاية المحتومة . . فهو يوحى بالأفول والذبول ، ويشعر بالألم والانقباض ! !

ومن ثم نرى حديث الشيب والشباب يرتبط بقضية جوهرية فى حياة الإنسان ، ويحرك معنى ذا أهمية كبرى فى النفس الإنسانية وتمتد تداعياته لتلامس قضية محيرة فى المصير الإنسانى وهى فلسفة الحياة والموت ، أو الوجود والعدم أو ، البقاء والفناء . . أو ماشئت من تسميات تثير فى الإنسان قلقا أبديا لا يجد مخلصا منه إلا بالاحتماء بحمى الدين والتسليم للمدبر الأعظم الذى حجب عن عباده سر هذه المغيبات وتعبدهم بذلك .

وهكذا نلمح أن حديث الشيب والشباب يستلزم دوماً تلك التداعيات الوجدانية التي تلقي ظلالها على مصير الإنسان وحركته فى الحياة ، ولذلك اعتمد الشعراء الأقدمون ـ ومن سار على دربهم من شعرائنا فى مطلع العصر الحديث ـ مطارحات الشيب والشباب رمزاً شعريا نفذوا من خلاله

إلي بث شجوهم وأسامم وأطلقوا العنان لعواطفهم المتعطشة أبداً إلي الحرية والتفلت من الأغلال .

والبحترى من أكثر شعرائنا الأقدمين ولوعاً بمطارحات الشيب والشباب وترديد تلك الأحاديث فى شعره ، فى لوحات تعبيرية مفعمـــة بالأحاسيس الزاخرة ، والصور الفنية البارعة ، وقد استطاع باحساسه المرهف أن يجعل من موضوع الشيب والشباب مادة تصويرية خصبة ، استخدمها بذكاء شديد فى شعره ، ووظفها توظيفـــا فنيا ناجحاً ، وقد تنبه الآمدى فى « الموازنة » إلي إكثار كل من أبي تمام والبحتري من ذكر الشيب والشباب فعقد موازنات بين ما قالاه فى مطالع القصائد وفى وسطهـــا وفى وصف الشيب وذمه وكره النساء للمشيب ونزول الشيب قبل حينه والبكاء على الشباب والتعزي عنه ، والعزوف عن الصبا ، والاعتذار من المشيب ومدح الشيب والتعزى عنه (١) .

لقد أغرم البحتري بحديث الشيب والشباب فأكثر من ترديده فى قصائده ومقطوعاته ، ونثره فى أكثر من مائة قصيدة في ديوانـه وأبدع ما يناهز الأربعمائة بيت من أعذب الشعر وأرقه .

ولم يكن كثرة ما قاله البحترى حول الشيب والشبـاب أو وتلك التفريعات المعنوية الـكثيرة التي عالجها في أثنـاء ذلك الشعر هو الذى أثـار اهتمامى بهذا الموضوع وإنما استولي هذا الموضوع علي اهتمامى لمـا لحظته لدى البحترى وغيره من إستخدام موضوع الشيب والشباب إطاراً فنيا يبث

---

١) الموازنة ط دار المعارف ج ٢ من ص ١٩٠ – ٢٣٠ .

الشعراء من خلاله رؤاهم وأحاسيسهم ، دون أن يكون موضوع الشيب والشباب هو غرضهم المقصود . وتلك الظاهرة هى التي حفزتنى إلي تناول هذا الموضوع باالبحث بغية توجيه نظر الباحثين في تراثنا الشعرى إلي هذا الجانب المهم من جوانب القصيدة الموروثة لعله يظفر بعنايتهم فتتضح مراميه وتستجلي دلالاته وطرائقه (١) . ويستكمل الباحثون إجراءه في شعر كثيرين ممن افتنوا في حديث الشيب والشباب مثل: أبى تمام ، وابن الرومي، والشريف الرضى ، وأبى الشيص ، وابن عبد ربه ، وغيرهم كثير .

* * *

لقد تفتحت عين البحترى على الحياة فى مطلع القرن الثالث الهجرى وأحوال الدولة العباسية فى أزهى ما تكون قوة واكتمالا وسطوة واستقراراً ، وتبدت مواهبه الشعرية وهو في مطلع شبابه فينقل فى بلاد الشام يمدح وجهاءها ويتعلق بأسباب المجد وذيوع الصيت ، واتصل فى تلك الحقبة بأبى تمام فتلمذ عليه وأفاد من حنكته وشاعريته ، ولمس أبو تمام فيه نبوغاً وموهبة واعدة فشجعه ورعاه ، وأوصى به وجهاء أهل الشام ، ثم مهد له في الاتصال بأشهر ممدوحيه من ولاة الثغور وحكام الأقاليم فى بلاد

---

١) بحث صديقنا الأستاذ الدكتور عبد الرحمن هيبة موضوع الشيب والشباب فى الشعر العربي حتي العصر العباسى وبذل فيه جهدا طيبا ، وعنى فى بحثه بتتبع ما قاله الشعراء على أمتداد العصر الجاهلى والاسلامى إلي نهاية العصر العباسى وعالج الموضوع بحسبانه ظاهرة عامة . ولم يعرض لبيان دلالات التعلق بحديث الشيب والشباب لدى كل شاعر ممن عرض لهم . وذلك ما أهدف إلي إبراز نموذج له فى هذه الدراسة الموجزة .

الشام والموصل وأرض الجزيرة ، ثم في بغداد وسامراء ، حتى نبغ البحترى واشتهر وذاع صوته فى عهد المتوكل العباسى ووزيره الفتح بن خاقان الذى توثقت صلة البحترى به وتدفقت عطـاياه عليه حتى صار من ذوى اليسار ومن أصحاب الاقطاعيات ، وغدا من زمرة أثرياء هذا العصر وممن جلبت عليهم شاعريتهم ذلك الثراء الواسع والغنى الموفور .

ومع أن البحترى شب وترعرع في إبان سطوة دولة بـــنى العباسى واكتمال مجدها السياسى فقد قدر عليه أن يعـايش أفول نجمهـا وانتكاس مجدها ، وانحدارها نحو الضياع . ووجد البحترى الذى وقعت قيثارته أعذب الألحان متغنيا منتشيا فى كنف المتوكل والفتح بن خاقان وغيرهما من رجالات ذلك العصر ـ وجد نفسه يفجع في راعييه المقربين ، إذ فجع فيهما معاً وقتلا أمام ناظريه دون أن يتمكن من دفع المكروه عنهما ، فتـأثر بذلك الحـادث الفاجع أبلغ التأثر وغاضت فى شعره تلك النغمة الفرحة المستبشرة وتحولت قيثارته لتعزف ألحان باكية ، تشكو وتنتحب ، وتسخط وتتبرم ، ولئن كان البحترى قد وجد عند بعض ممدوحه بعد عهد المتوكل شيئاً من التكريم ، ونال بعضهم من نفس البحترى حظاً من الاعجاب والثناء إلا أنهم لم يكونوا يحتلون من نفسه ما كان لأصفيائه في عهده الأول .

لقد كتب علي البحترى أن يعايش تلك التحولات الحـادة فى مـكانة ونفوذ خلفاء بنى العباسى ، وتغلغل سلطان الأتراك واستئثارهم بالأمور من دون الخلفاء ومن ثم استشراء المفاسد والدسائس واشتعال الفتن والثورات وسقوط هيبة الخلافة في نفوس الناس ، والذى يدعو للدهشة أن البحترى عرف كيف يتعايش مع هذه الأوضاع الجديدة ووطن نفسه علي تياراتهـا

ومتطلباتها ، فتقلب مع أرباب النفوذ ودار مع صولجان الحكم ، وسبح مع التيار واستطاع أن ينجو برأسه من تلك الصراعات الكثيرة من حوله .

ولكن شاعريته اللماحة وعت تلك الأحداث وسجلتها في نتاجها الخصب تصريحا تارة وتلميحاً أخرى وذلك ما سنسلط على جزئية منه وهى حديث الشيب والشباب الأضواء في الصفحات التالية.

* * *

فى اجتهادى أن حديث الشيب والشباب أحـــد الأدوات الفنية التي اعتمدهـا شعراؤنا الأقدمون لونـاً من ألوان التصوير الشعرى الذي يتخذ رمزاً فنيا وإطاراً تعبيراً يستعرض الشاعر من خلاله قدراته الفنية وميداناً فسيحا يطلق فيه الشعراء العنان لقرائحهم الملهمـة فتبدع أفانين من الصور المعجبة وتستلهم المزيد من الخواطر المستجاشة .

وبهـذا التصور لموضوع الشيب والشبـاب ودوره في الأداء الشعري ينبغى أن يتنبه الباحثون في تراثنا الشعرى الي أن حديث الشيب والشباب يأتى ضمن الأدوات الفنية الصرفة التي درج شعراؤنا الأقدمون على مس أوتارها في افتتاحيات قصائدهم وبخاصة المدحية منها فيكون الشيب والشباب مندرجا في « تلونيات » الأفتتاحية الشعرية ـ إن صح هذا التعبير ـ مثل الغزل وبكاء والأطلال وحديث البين والبعاد والطيف ، ووصف الابل ، والخيل ، وحديث الرحله وتجشم أهوال لأسفار . . .ويرجح هذا التصور ـ فى تقديرى ـ أن معظم ما قاله البحترى فى الشيب والشباب مبثوث فى افتتاحيات قصائده ولنا أن نؤكد ذلك بأن البحترى الذى عاش بالشعر وللشعر

أبدع نحوا من خمسين وأربعمائة قصيدة مدحية بدأها فى الأعم الأغلب بافتتاحيات غزلية تقليدية ، نثر حديث الشيب والشباب فى نحو مائة قصيدة منها ، وهذا يدل علي أن أبا عبادة قد عمد إلي هذه المطارحات ليشيع فى شعره ألواناً من الصور الطريفة ويضفى على قصائدة جواً من الابتكار ويباعد بينها وبين الاملال والتكرار .

* * *

- ١ -

من الظواهر التي تبعث على التأمل في حديث الشيب والشباب فى شعر البحترى أن له أشعاراً شكا فيها الشيب وبكي الشباب فى مرحلة باكرة من عمره ، لا نستطيع أن نصدق أنه يعنى فى تلك المرحلة شيباً حقيقا أو يبكى شباباً موليا كما يفهم لأول نظرة من شعره ، إذ يستدل من سياق الشعر وأخبار الشاعر أنه قال ذلك بعيد العشرين من عمره ، في الثانية والعشرين والرابعة والعشرين وحتي التاسعة والعشرين. فهل كان البحترى يعنى شيباحقيقيا ويبكي شباباً حقيقيا ؟ أو أنه رمز بهذا وذاك إلي معنى آخر ومغزى أبعد من تلك الدلالة القريبة لشعره ؟ لقد أدمت النظر فى شعر الشيب والشباب لدى البحترى فى مراحل عمره كلها فاتضح لي أنه كان فى أغلب الأحوال يستخدم هذا الحديث إستخداماً رمزيا ويرمى من ورائه إلي دلالات متنوعة، وقد تبين لي أنه يستخدم حديث الشيب فى تلك المرحلة الباكرة من عمره للايحاء بأنه قد فارق عبث الصبا وطيش الشباب ، وهيا نفسه لمنادمة الملوك ، ومجالسة الوجهاء ، وأرباب السلطان ، وندب نفسه لتسجيل مآثرهم وصوغ

أمجادهم ، والاستحواذ على إعجابهم بشعره الرائع وبيانه العذب ،وشاعريته العملاقة ، وإذا كان وهو الشاب الطامح إلى الأمجاد مطلوبا منه أن يزاحم الشيوخ والمجربين ، والفحول المقدمين ـ فلا غرو اذا أن يتزيا بزيهم ويتشح بارديتهم ،وأن يتخذ لذلك سياجاً من فنه التعبيرى المؤثر .. وليتأمل القارىء معى هذه الافتتاحية المدحية لاحدى قصائد البحترى فى مدح « علي بن مر الطائى » وهى مما يرجح أنها قيلت فى عام ٢٣٢ هـ أى والبحترى فى الثامنة والعشرين من عمره يقول فى أولها (١) :

فى الشيب زجر له لو كان ينزجر .. وواعظ منه لولا أنه حجر

أبيض ما أسود من فوديه وأرتجعت

جلية الصبح ما قد أغفل السحر (٢)

وفى اجتهادى أن البحترى فى هذه القصيدة يرمز بالشيب للاحساس بالمسئولية ،والطموح إلى تحقيق الآمال ، ومن ثم انقضاء زمن الصبا الذى لايحس فيه الفتى بالمسئولية ، ويغدو فى الحياة دون اكتراث بما تأخذ منه الأيام .أما هو هنا فقد عزم على مفارقة عبث الصبا ، وانصرف الى دروب الجد والسعى الدؤوب لفرض مكانته فى أجواء المجد وأروقة العظماء وميادين نباهة الشأن ورفعة القدر وسيرورة الشهرة .

ونتابع البحترى فى حديثه الايحائى الذى ينتقل فيه بمهارة فذة من صورة فنية الى صورة أخرى فتتآكد لنا من خلال تلك اللوحات المعجبات الخواطر التى

---

١) ديوان البحترى القصيدة رقم ٣٧٩ .

٢) فوديه مثنى الفود : وهو جانب الرأس مما يلى الأذنين الى الأمام .

تضطرب لها نفسه ، ويتضح من خلال ذلك الملحظ الذى أشرت اليه فى تحليلي لمرامى شعره ودلالاته يقول :

وللفتى مهلة فى الحب واسعة ما لم يمت فى نواحى رأسه الشعر

أجل ان للفتي في لهوه و بطالته مهلة لابد منتهية بتفتح عينيه على حاجات النفس وطموحاتها ، وبخاصة من شاعر مرهف الحس مفعم النفس والقلب بالأمانى العراض ، والاعتزاز بموهبته ونبوغه . ثم يستطرد البحترى فيقول :

قالت مشيب وعشق رحت بينهما وذاك فى ذاك ذنب ليس يغتفر
وعيرتنى سجال العدم جاهلة والنبع عريان ما فى فرعه ثمر (١)
وما الفقير الذى عيرت آونة بل الزمان الي الأحرار يفتقر

ولنتأمل هذه الأبيات لنستوضح من ثناياها المعنى الذى أود توجيه الأنظار اليه . لقد ذكر البحترى فى معض الاعتراض على مسلكه فى الحياة وعيبه أمران : العشق فى المشيب ، ثم العدم أو الفقر ولكنه فى الجواب عن ذلك طوى الشق الأول من الاعتراض وتعلق بتفنيد الشق الثانى واستطرد فى ذلك بما يدل علي أن هذا الجانب الأخير هو شغله الشاغل فى تلك الافتتاحية كما تؤكد الأبيات التالية ، أما حديث الشيب فما هو — فى تصورى — الإغلالة فنية ألقا الشاعر علي ما ربه المادى الملح الذى أقلقـــه وأقض مضجعه فى

---

١) سجال : جمع السجل أى الدلو العظمية أو الضرع العظيم وأضافه الي العدم أى الفقر فكأنه يكنى به عن الفقر الشديد . والنبع : شجر تتخذ منه القسى ويريد أن شجر النبع علي أهميته غير ذى ثمر .

مطلع حياته وفى بداية كفاحه لتثبيت قدمه فى عاصمه الضوء والذهب بغداد (وسامراء) .. وتأمله وهو يقول بعد ذلك مباشرة :

عزى عن الحظ أن العجز يدركه ... وهون العسر علمى فى من اليسر
لم يبق من جل هـذا الناس باقية ... ينالهـا الوهم الا هـذه الصور
بخل وجهل وحسب المرء واحدة ... من تين حتي يعفى دونه الأثر
اذا محـاسنى اللاتي أدل بهـا ... كانت ذنوبى فقل لي كيف أعتذر ! !

وما أظنه قصد سوى الجاهلين لقدره، الغافلين عن سبقه الذين لم يتنبهوا الي ألق شاعريته ، وأصالة جوهره فـلم يقدروه قدره ، ولا أحلوه المـكان اللائق به ، واذا كانت محاسنه التي يدل بها ويفخر بامتلاك مفاتيحها تقابل بالتجاهل والازدراء فكيف يتعذر عن سوء حاله وهوان موضعه ، انه الإحساس بالضياع من شاعر فذ يدفعه تقديره لشاعريته الي تلك الحملة المدوية علي المتجاهلين له ، المعرضين عنه . وها نحن أولاء نشهد ثورة البحترى الصاخبة علي من أوصدوا أمام شعره الأبواب فى سامراء فى القصيدة عينها اذ يقول :

أهز بالشعر أقواماً ذوى وسن [1] ... فى الجهل لو ضربوا بالسيف ما شعروا
علي نحت القوافى من مقـاطعها ... وما عـلي لهم أن تفهم البقر
لأرحلن وآمـالي مطرحـة ... « بسر من راء » مستبطا لهـا القدر
أبعد عشرين شهراً لا جدى فيرى ... به انصراف ولا وعـد فينتـظر

---

١) الوسن : النوم ويعنى هنا الغفلة .

لولا «علي بن مر» لا ستمر بنا .·. خلف من العيش فيه الصاب والصبر (١)

وهكذا طوف بنا البحترى فى هذه الافتتاحية مزاوجا بين حديث الشيب وابيضاض الشعر وبين سوء حاله وانجسار آماله وجهل أهل زمانه به فى تلك الحقبة التي كان يجهد جهده ليعرفه الناس وليقدروا شاعريته المبدعة قدرها .

وهنا كذلك نرى أبا عبادة يوظف حديث الشيب توظيفا فنيا يومىء من خلاله الي تطلعه لمعالي الأمور واجتيازه مرحلة الغرارة والطيش ، وانتمائه الفكرى والشعورى الي عالم المشيب عالم التجربة الناضجة ، والمعرفة المستوعبة ، والموهبة المكتملة التي التي تود أن تفرض علي القاصى والدانى الاعتراف بها والالتفات اليها .

وباستطاعتنا أن ندخل فى هذا الاطار أكثر ما شكا فيه البحترى الشيب فى المرحلة الباكرة من عمره عندما بدأ فى الوفود علي الممدوحين فى بلاد الشام ثم فى عاصمة الخلافة فى العراق وفى محاولاته الأولي لصعود سلم المجد الذى كان يتزاحم على جنباته عديد من المريدين والطامعين .

من ذلك على سبيل المثال لا الحصر ـ ما قاله البحترى وهو فى نحو الثانية والعشرين من عمره فى افتتاحية مدحة له يقول منها (٢) :

---

١) الخلف ـ بكسر الخاء ـ : حلمة الضرع وما أنبت الصيف من العشب ، والصاب والصبر : عصارة شجر مر .

٢) ديوانه القصيدة رقم ٤٦١ .

اليوم حولـنى المشيب الي النهى وذللت للعذال بعد شمـاس
ورفعت من نظرى الي أهل الحجى ولويت عن أهل الغواية رأسى

والبيتان يوشكان أن يكونا صريحين فى الدلالة على الانصراف الي عظائم الأمور والاقلاع عن الصغائر ، والتوجه الي أرباب العقول والفهوم ، وأهل الحكمة والتجربة ، والأبتعاد عن رفقة الصبا ، وذوى الغواية والبطالة .

وفى افتتاحية مدحة له للفتح بن خاقان قالها وهى فى نحو التاسعة والعشرين من عمره يقول (١) :

عهـدتـنى وللشبيبـــة سربا ل جديد فأنهج السربال (٢)
ورأتـنى تدارك الحـــلم مـنى وتنـاهى عن عذلي العذال
ان يعد هجرها جديداً فقد كا ن جديداً مناومنها الوصال

وهى تشعر أيضاً بالانصراف عن لهو الصبا وعبث الشباب وتلح على معنى اكتمال العقل والحلم ، واستقامة المسلك ، وارتضاء السيرة .

ويؤكد تلك الظاهرة أصدق توكيد ما قاله البحترى كذلك وهو فى نحو الحـادية والعشرين من عمره يمدح أحمد بن الحسين بن صدقة بالشام يقول :

أنى سبيل الغى منك وقد نضا من صبغ ريعان الشبيبة ما نضا

---

١) ديوانه القصيدة ٦٩٣ .

٢) السربال : القميص أو كل ما يلبس . أنهج : بلي أو أخذ فى البلى .

فهو يذكره صراحة أنه يعنى الدلالة على الأنصراف عن طريق الغواية بعد أن بلغ الرشد وفارق مرحلة العبث غير المسئول التي عبر عنها بريعان الشبيبة .

ولعلنا نستطيع أن نؤكد ذلك الفهم بما صرح به البحترى فى احدى افتتاحياته الغزلية اذ أشار الي أن الشباب المبكر هو مظنة الصبوة ومناط الهوى واللذة المنتشية وقد حدد له سن العشرين عندما قال [١] :

سقينا جنى السلوان [٢] أم شغل الهوى
علينـــا بنـــو العشرين من كل معشر

* * *

- ٢ -

جاءت مطارحات الشيب والشباب فى شعر البحترى فى الأعم الأغلب فى افتتاحيات قصائده المدحية وفى ذلك ما يشعر بأن البحترى كان يعمد الي إلي هذه المطارحات مصطنعا اياها مثرياً بها معانيه الشعرية وخاصة فى تلك الأفتتاحيات المتكررة دوماً فى بداية قصائده ، ولعلي لا أبالغ اذا قررت أن البحترى كان صانعـا بارع الصنعة فى تلوين حديث الغزل والصبوة بمطارحات الشيب والشباب ، فقد كان البحترى من أبرز شعراء المديح وهو

---

١) ديوانه القصيدة ٤١٩ .

٢) الجنى : الثمر الناضج . والسلوان : التسلي والعزاء ويعنى هنا التسلي عن الغرام والصبوة .

ميدان فسيح من ميادين الشعر العربى متحت قرائح الشعراء منه فيضا من المعانى والخواطر ، ونثرت فى افتتاحياته حشدا من الصور الفنية والتوليدات البديعة .

وفى تصورى أن البحترى استطاع بموهبته الفذة أن يجعل من مطارحات الشيب والشباب رافداً مهما من روافد الافتتاحيات الغزلية عنده ، وقد ألمحنا الى أن للبحترى فى المديح مئات القصائد التي بدأها بالغزل وسنرى كم كان البحترى موفقا فى استخدام حديث الشيب والشباب استخداما متقناً أشاع فى كثير من افتتاحياته جواً من الطرافة الفنية ، وأضفى على شعره روعة بيانية أخاذة ، وكان ابداع البحترى ينتزع الاعجاب والاكبار فى معظم الأحيان بمقدرته الفريدة على مزج معانيه الغزلية بايحاءات أحاديث الشيب والشباب بحيث تكمل هذه الأحاديث ايقاعات الغرام والصبوة ، وتكون معها نسيجاً منمنماً ووشياً فنيا مبدعاً ، له مذاقه الحلو ، وايحاؤه المحبب لدى عشاق فنه ، والمعجبين بشاعريته .

وها هوذا فى احدى افتتاحياته المدحية يلون معانى الغزل بتلك المطارحة المتنامية بين العاشق الواله وفتاته المتأبية التي تغمزه بأن المشيب قد بدأ فى جانبي رأسه يقول [١] :

رأت فلتات الشيب فابتسمت لها ... وقالت نجوم لو طلعن بأسعد

« أعاتك » ما كان الشباب مقربى ... اليك فألحى الشيب اذ كان مبعدى [٢]

---

١) ديوانه القصيدة ٢٩٩ .

٢) ألحى : ألوم .

تزيدين هجراً كلما ازددت لوعة طلاباً لأن أردى فها أنذارد [١]
متي الحق المعيش الذى فات آنفا اذا كان يومى فيك أفضل من غدى

وفيها نرى البحترى يبدع معنى طريفا فى الغزل يصور فيه معاناة المحب العاشق من اعراض فتاته عنه وضياع زهرة عمره فى تعلقه بها حتي اذا دلف اليه المشيب كان منها التندر به ، وافتعال المبررات لصرم وداده ، ولكنه يكاشفها بشعوره ويصف الغبن الذى أصابه فى علاقته بها ، اذ لم ينل من ودها شيئا زمن الشباب فما بالها تلومه وتعيره عندما حل به المشيب ؟ ؟

ومن الأبتكارات التي لون بها البحترى المقدمات الغزلية فى شعره مستعينا بحديث الشيب والشباب قوله فى قصيدة مدحية [٢] :

ما أنس من شيء فلست بناس
عهد الشباب اذا الشباب اباسى
ان الخطوب طوينني ونشرنني
عبث الوليد بجانب القرطاس [٣]
ما شبت من طول السنين وانما طول الملامة فيك شيب راسى

---

١) ر د : هالك .

٢) ديوانه القصيدة ٤٧٤ .

٣) القرطاس : الصحيفة يكتب فيها . قال محقق الديوان المرحوم حسن كامل الصيرفى تعليقا علي هذا البيت : « ويبدو أن أبا العلاء المعرى أختار عنوان كتابه « عبث الوليد » الذى تكلم فيه عن شعر البحترى من قول البحترى نفسه : « عبث الوليد بجانب القرطاس» ورأيه له وجاهته .

ويؤكد تلك الرغبة فى الطرافة وتلوين المعانى الغزلية أن محقق الديوان رجح أن القصيدة التي منها تلك الأبيات مما قيل فى نحو سنة ٢٢٧هـ أى فى مقتبل عمر البحترى فهي لا تنتمي الى مرحلة المشيب الحقيقي .

وأمثلة هذه النوعية فى افتتاحيات شعر البحترى كثيرة وابتكاراته وتوليداته تؤكد غرامة بابداع الجديد والعجيب في ذلك الباب . من ذلك تلك الأبيات ، وهي من قصيدة له قيلت فى سنه ٢٣٠ هـ يقول منها [١] :

أمولعة بالبين رب تفرق ... جرحت به قلبا بحبك مولعا
ومن عاثر بالشيب ضاعف وجده ... علي وجده أن لم تقولى له: لعا [٢]
فأثقل علينا بالمشيب مسلما ... وأحبب الينا بالشباب مودعا

فتأمل هذه المفارقات التصويرية البديعة بين تلك المحبوبة المتأبية المولعة بالبين التي لا تحس بأنها تدمي بذلك قلب فتاها المولع بحبها ، وتامل كذلك تلك الصورة الفذة التي أبدعتها قريحة البحترى مجسمة من خلالها فداحة المصاب الذى يصيب الانسان عندما يحل به المشيب فى صورة انسان متعثر لايكاد ينتصب معتدلا حتي يكبو وينكفىء وقد منى فى نكبته تلك بانفراده عن المعين ، وانقطاعه عن المساعد الذى يواسيه ويدعو له بالسلامة ، ثم ذلك الربط التصويرى بين القادم المسلم المرغوب عنه ، والراحل المودع المرغوب فيه .

---

١) ديوانه القصيدة ٥٠٥ .

٢) لعا : عبارة تقال فى الدعاء للعاثر أى أنعشك الله وأقامك من عثرتك.

وكلما تأملنا هذا الباب فى شعر البحترى رأينا أثراً من آثار البراعة الفنية، ولمسنا مسحة من دقة الصنعة وحسن الناتى ،واشاعة جو من الرمز الايحائى المحبب ... من ذلك القصيدة التى مطلعها (١) :

أرسوم دار أم سطور كتاب

درست بشاشتها مع الأحقاب

وهي فى مدح الحسن بن محمد الطائى مما قاله البحترى فى نحو الثانية والعشرين من عمره ، مما يرجح لدينا أن حديث الشيب فيها ليس مقصوداً لذاته وانما يستخدمه الشاعر ليثرى من خلاله صورة الغزلية ويلونها بفنون من الالماحات الدالة والمطارحات الفنية التى تكسب التجربة الشعرية سمة الواقعية ،وتبعث فى نفوس سامعي شعره ومتلقيه جوا من الاقناع والتعاطف مع الشاعر فى شكوه والتياعه هاهو ذا يقول فى تلك القصيدة بعد ذكر الأطلال واجترار ذكريات الصبا :

ولئن شكوت ظماى انك للتى قدماً جعلت من السراب شرابى
وعتبت من حبيك حتى انني أخشى ملامك أن أبثك ما بى
ولقد علمت وللمحب جهالة أن الصبا بعد المشيب تصاب
وأما لو أن الغدر يجمل فى الهوى لسلوت عنك وفى بعض شبابى

ورغبة البحترى واضحة كما يظهر من الأبيات فى ايراد المعانى الطريفة فى غزله ، ومن ثم كان هذا الإبعاد فى الشكوى والالتياع ومن أجل ذلك

---

١) ديوانه القصيدة ١٠٣ .

اصطنع البحترى ثوب المشيب واطرح جهالة الشباب ، وصرح بانه وفى لفتاته ، مترفع عن الختر والغدر ولو كان ذلك من أخلاقه لتهيأ له أن يسلو عن حبها وفيه بقية من شباب .

وهكذا يأتى حديث الشيب والشباب فى شعر البحترى أداة فنية بارعة يوشى بها الشاعر صوره ، ويخلع على معانيه جواً طريفا ساحراً .

ويذكرنا ذلك الصنيع من البحترى بوصية أستاذه أبى تمام التى حكاها البحترى نفسه بقوله :

« كنت فى حداثتى أروم الشعر وكنت أرجع الى طبع ، ولم أكن أقف على تسهيل مأخذه ... حتى قصدت أبا تمام فانقطعت فيه اليه ، واتكلت فى تعريفه عليه ، فكان أول ما قال لى : يا أبا عبادة تخير الأوقات وأنت قليل الهموم صفر من الغموم . وأعلم أن العادة فى الاوقات أن يقصد الانسان لتأليف شىء أو حفظه فى وقت السحر وذلك أن النفس قد أخذت حظها من الراحة ، وقسطها من النوم فاذا أردت النسيب فاجعل اللفظ رقيقا والمعنى رشيقا ، وأكثر فيه من بيان الصبابة ، وتوجع الكآبة ، وقلق الاشواق . ولوعة الفراق . ... » (١) فقد حفظ البحترى توجيه أستاذه ، وطبقه فى شعره بذكاء فذ ، ومهارة نادرة ، وحذق وسائل الابانة عن فرط الصبابة وتوجع الكآبة وقلق الأشواق ولوعة الفراق وكان فى غزله كله يكاد ينبعث من هذه الركائز التى اكتسبها من خبراء الشعر ، وصيارفة القريض . وفى

---

١) زهر الآداب للحصرى ج ١ ص ١٠١ .

وذلك ما يؤكد الاستنتاج الذى استنبطناه من تأمل دلالات حديث الشيب والشباب فى شعر البحترى .

ومما يدعم هذا الرأى أن للبحترى فى تلك المرحلة من عمره وفيما بعدها بسنوات شعراً فى الغزل يعتد فيه بالشباب ويتعجب من تعرضه للهجران والاعراض من حبيبه وقد جعل شبابه وصباه أداتيه للظفر بالوصال والتمتع بنيل القرب ممن يهوى . وفى ذلك دليل لا يقبل المماراة على أن أبا عبادة كان يستخدم موضوع الشيب والشباب لينفذ من خلال كل منهما الى المطارحات الغرامية التى تكسب شعره الروعة وتجعله جديداً مبتكراً على الدوام .

ولنتأمل تلك الأبيات من قصيدته التى مطلعها [١] :

صب يخاطب مفحمات طلول من سائل باك ومن مسئول

وهى من مقصائد التى أشار نقدة الشعر الى روعة كثير من معانيها فى الغزل والمديح من ذلك ما حكاه الشريف المرتضى فى أماليه[٢] من أن الجاحظ سئل : من أنسب العرب ؟ فقال الذى يقول :

عجلت الى فضل الخمار فأثرت عذباته بمواضع التقبيل [٣]

وهو من هذه القصيدة ... وعقب الشريف على تلك الرواية بقوله : ... وفى نسيب هذه القصيدة بيت ليس يقصر فى الملاحة والرشاقة وأخذه

---

١) ديوانه القصيدة . القصيدة ٦٤٥ .

٢) ٤٤/٢ ط الحلبى .

٣) الخمار : ما تغطى به المرأة رأسها ، عذباته : أطرافه وأهدا به .

بمجامع القلوب عن البيت الذي فضله به الجاحظ وهو قوله :

أأخيب عندك والصبا لى شافع وأرد دونك والشباب رسولى

وهو البيب الذى أقصده بالاستشهاد هنا وقد قيلت القصيدة التى منهـا هذا البيب فى نحو سنة ٢٢٧ هـ فهي اذن بعد القصيدة التى سبقت الاشارة اليها آنفا والتى يشكو فيها المشيب فى حين نراه هنا يتعجب من تبدد آماله فى الوصال وقد كان الصبا شفيعه والشباب رسوله فالمسئلة اذا لاتعدو أن تكون توظيفا فنيا لأحاديث الشباب والمشيب على النحو الذى يخدم الهدف التصويرى الذى يريد الشاعر الالماح اليه والايحاء لمتلقي فنه به .

وهكـذا نستطيع أن نؤكد من خـلال الملحظين السابقين ـ توظيف حديث الشيب والشباب فى الانصراف عن عبث الصبا ، وتلوين الغزل بمعان مبتكرة ـ أن البحترى برع فى مرحلة شبابه واقتبال عمره فى التعويل على حديث الشيب تارة والشباب تارة أخرى وله من وراء ذلك غاية فنية بقطع النظر عن واقع الشيب والشباب فى حياة الشاعر ، وسنرى فى النقاط التالية أنه برع كذلك فى توليد معان شتى ، ومعارض معجبة من خـلال مطـارحات الشيب والشباب بحيث استطاع أن يثرى معانيه الشعرية بفيض من الدلالات والايحاءات ، وأن يمزج أحاسيسه وخطرات نفسه وما أدخلته الاحداث الجسام على قلبه من ضيق وكرب وضجر وسخط وما حفلت به مسيرته مع أهل عصره من مد وجزر ، وخوف ورجاء ، وتقريب وابعاد ، وما تعرض له من كيد ودس ، وكيف استخدم أداته الفنية للتعبير عن ذات نفسه وما انطوت عليه حناياه .

* * *

— ٣ —

ومن عجيب الظواهر أن البحترى الذى حرص فى المرحلة الباكره من عمره على تكلف المشيب بحلمه ووقاره ، وجهد فى أن يبدو متشحاً بزى الشيوخ مصطنعا تجاوز الشباب بطيشه وتهوره — لا يلبث أن يرى الأيام وقد استرقت عمره والشيب الحقيقى قد تسلل إلى روائه ، وظهر — على الرغم منه — فى ملامحه ، واستشرى فى فوديه وقذاله فانصرفت عنه العيون ، وازور عن لمحة رفيقات اللهو وذوات الجمال الفاتن ، فيتحقق له أنه كان واهما فى تصور أن المشيب يجلب الحلم والوقار ، والمجد والرفعة ، ويتيقن أن تلك الآمال التى تعلق بها لم تكن إلا سراباً خادعاً بل شركاً آثما نصبته له الأيام ، وعبثا يحاول الفكاك من ذلك الشرك والعودة إلى عهد شبابه الذى تولى فلا يجد إلى ذلك سبيلا . غير الشكوى والنحيب ، والبكاء والنشيج ، فتبدع قيثارته ألحاناً مشجيات ، وتستدعى خواطر لا حصر لها فى التنديد بوقار الشيب وحنكته ، والتنويه بطيش الصبا وجهالته . كما ترسم صوراً مترعة بالأسى لمفارقات الشيب والشباب التى تبرز فداحة الرزء ، وهول العناء الذى يلقاه من قدر عليه أن يضرب فى صحراوات المشيب منقطعا عن كل سرور ، مستوحشاً ظامئا ، يستعيد ذكريات الشباب بظله الوارف ، ونبعه الثر ، ورفقته المتوجة بالسرور ، المنتشية بمتع الحياة ولذائذ العيش ، فى رضى وإقبال وفراغ من الهموم .

وتتلون مطارحات الشيب والشباب فى شعر البحترى بعيد مرحلة الشباب بألوان شتى وخواطر جمة .. فعندما يرى أنظار الحسناوات منصرفة عنه يصرخ فى ثورة بأن لا دخل له فى حلول المشيب ولا قبل له بدفعه .

وتأمله يخاطب فتاته فى عتاب ممزوج بالحسرة بقوله [1] :

وحملت عندك ذنب المشيب حتى كأنى ابتدعت المشيبا

ونراه بين الفينة والفينة تعاوده صبوته ويرى من نفسه ميلا إلى الهوى والوصال فيقول [2] :

لا يرعك المشيب منى فانى ما ثنانى عن التصابى المشيب

وهكذا تتراوح أشعار البحترى فى تلك المرحلة بين الرضا والغضب والطمأنينة والقلق ، والهدوء والثورة . وكما ظهرت عبقرية البحترى فى توظيف حديث الشيب فى عهد الشباب واقتبال العمر تظهر كذلك عبقريته فى زمن المشيب فى صدق التعبير عن الإحساس ، وفى الرمز بالشيب لانقباض نفسه ، وتبدد آماله ، وانتهاء سروره ، وأفول نجمه .

وتتبدى براعة البحترى وأصالة موهبته الشاعرة فى إبراز مفارقات الشيب والشباب فى صور شتى وتناقضات حادة من مثل صور : الفتى والشيخ وسواد الشعر وبياضه ، وود الغانيات وإعراضهن ، وقصر عهد الشباب وطول عهد المشيب ، واستقامة قد الشاب وانحناء ظهر الشيخ ... إلى غير ذلك من الصور المفجعة والمفارقات التى تستدر العبرات ، وتهيج كوامن الأسى ، وقد برع البحترى فى إضفاء ألوان من المقابلات التعبيرية التى تدعم تلك المفارقات المعنوية وتجليها للناظرين والمتأملين .

---

١) ديوانه . القصيدة ٥١ .

٢) ديوانه . القصيدة ٤٤ .

وهذه طائفة من المعالجات الشعرية التي تظهر بجلاء مقدار رهافة حس البحترى ومهارة صنعته :

وتأمل تلك المفارقة التى يصور فيها سوء حاله وتصرم آماله وقد رأى نفسه يجهد فى شبابه وصباه لينعم بيسر الحياة ورغد العيش ولكنه ينفق دهره الأطول فى سبيل بلوغ ما يروم فيجد أن الشيب قد سبقه إلي انتهاب عمره ، وقد كان حريصا على الهروب من ملاحقته يقول [١] :

مالي وللشيب آباه ويتبعنى ... وللصبابة أنآها وتقترب

وقد حرصت على جدى يصاحبنى ... على الشباب لو أن الحظ يكتسب

أو تفرس قوله من قصيدة أخرى [٢] يبكى شبابه الذى تولى ولا سبيل لرجوعه :

سيثلج صدرى اليأس ، واليأس منهل ... متى تغترف منه الجوانح تثلج

قنعت على كره وطأطأت ناظرى ... إلى رنق مطروق من العيش حشرج [٣]

ولجلجت فى قولي وكنت متى أقل ... بمسمعة فى مجمع لا ألجلج [٤]

يظن العدى أنى فنيت وإنما ... هى السن فى برد من العيش منهج [٥]

---

١) ديوانه . القصيدة ١٣٠ .

٢) ديوانه . القصيدة ١٦٧ .

٣) الرنق : الماء الكدر . الحشرج : نقرة يجتمع فيها الماء .

٤) اللجلجة : التلعثم وعدم الإبانة .

٥) البرد المنهج : الثوب البالي .

نضوت الصبا نضو الرداء وساءنى مضى أخى أنسى متى يمض لا يجى [١]

ومن أبدع ما قرأته فى ذم بياض الشيب وإكرا به للنفس ما فاضت به قريحة البحترى في معارض شتى من شعره منها قوله [٢] :

« وعجيب طريف ذا الشعر الأبيض أبدى خلوقة من تليده » [٣]

إذ يصور الشعر الأبيض الذى لا يظهر إلا بعد مرحلة ممتدة من عمر الإنسان فهو في ظاهر الحال جديد ولكنه جديد أظهر بلي وأسمج منظراً من الشعر الأسود القديم وجوداً ولكنه جديد الرواء مبهج للناظرين .

وفي قصيدة أخرى مدحية [٤] قالها البحترى فى شيخوخته تبرز تلك المفارقات بصورة شديدة الوقع عميقة الدلالة فى قوله متسائلا حائراً :

أيعود الشبـاب أم يتـولي منه فى الدهر دولة ما تعود ؟
لا أرى العيش والمفارق بيض إسوة العيش والمفارق سود [٥]
وأعـد الشقي جداً ولو أعـطى غـنما حتى يقـال سعيـد
من عدته العيون وانصرفت عنـه التفاتـا إلى سواه الخدود

---

١) نضوت : خلعت ونزعت .

٢) ديوانه : القصيدة ٢٤٨ .

٣) الطريف : الجديد . والتليد : القديم . أبدى خلوقة : أى أظهر بلي .

٤) ديوانه القصيدة ٢١٠ .

٥) إسوة . مساويا ومماثلا .

ومع الغانيات تأويد ود المذى في قناته تأويد [١]

وفي قصيدة للبحترى يمدح بها الخليفة المعتمد مطلعها [٢] :

حقا أقول لقد تبلت فؤادى وأطلت مدة غيي المتمادى [٣]

يضمن افتتاحيتها الغزلية معان بديعة في الشيب والشباب من مثل قوله :

هل أنت صارف شيبة إن غلست في الوقت أو عجلت عن الميعاد [٤]

جاءت مقدمة أمام طوالع هذى تراوحنى وتلك تغادى

وأخو الغبينة تاجر في لمة يشرى جديد بياضها بسواد [٥]

لا تكذبن فما الصبا بمخلف فيناولا زمن الصبا بمعاد

وأرى الشباب على غضارة حسنه وجماله عدداً من الأعداد [٦]

---

١) التأويد : الاعوجاج .

٢) ديوانه . القصيدة ٢٨٧ .

٣) تبلت فؤادى : استولى عليه غرامك والهيام بك .

٤) غلس : دخل في الغلس أى ظلمة آخر الليل .

٥) الغبينة . الخديعة . اللمة . الشعر المجاوز شحمة الأذن . ومعنى يشرى هنا : يبتاع كما حقق المرتضى ونبه على وهم الآمدى في تفسير يشرى بمعنى يبيع .

٦) قوله عدداً من الأعداد : أى زمنا قليلا . والعرب تقول في الشيء القليل إنه معدود إذا أرادوا الاخبار عن قلته وذلك لأن العدد والحصر لا يقع إلا على القليل أما الكثير فلكثرته لا ينضبط ولا ينحصر . (هامش الديوان)

وفي هذه القصيدة تمتزج مفارقات الشيب الشباب بحديث التأمل المستبصر والتفكير المتعقل الذى لا يتعلق بالأوهام وإنما يقرر الحقائق ويستمد دلائله من الواقع وذلك واضح من الاستفهام المتضمن معنى النفي في قوله : هل أنت صارف شيبة إن غلست ... ، ويستطرد في ذلك الايقاع المنضبط عندما يحكم علي من يحل به الشيب بديلا عن الشباب بالمغبون الذى لا ريب في خسران صفقته ثم يؤكد حقيقة استحالة عودة الشباب بعد حلول المشيب في قوله :

لا تكذبن فما الصبا بمخلف فينا ولا زمن الصبا بمعاد

وفى افتتاحية مدحية مطلعها [١] :

لأخي الحب عبرة ما تجف وغرام يدوى الحشا ويشف [٢]

يفرد لحديث الشيب والشباب فيها جانباً مهما مستطرفا يلونه بقوله :

إى وسعى الحجيج حين سعوا شعثاً ووصف الحجيج ساعة صفوا [٣]

لن ينال المشيب خطوة ود حيث يسجو لحظ ويحور طرف [٤]

وغريب في الحب من لم يصاحب ورقاً من جنى الشباب يرف

---

١) ديوانه . القصيدة ٥٤٦ .

٢) يدوى : يمرض . يشف : يوهن ويضعف .

٣) إى : حرف جواب بمعنى نعم ولا تقع إلا قبل القسم .

٤) يسجو : السجو : الفتور والسكون .

ناكرته الحسناء أبيض بضاً وهواها لو كان أسود وحف (١)

يهضم الشيب أو يرى النقص فيه أسف يتبع الشباب ولهف (٢)

والأبيات تكشف عن صراع نفسي محتدم بين خواطر الشيب والشباب في وجدان البحتري ، فبينا تزين له الأولى أن يتمادى في صبواته متغاضيا عن مقضيات السن وبواعث اليأس من وصال الحسناوات ونيل ودهن ـ تلح الأخرى في إشعاره بالإخفاق وصرفه عن غيه ، وتؤكد له بما لا يدع مجالا للريب أن ما تدعوه إليه هواتف الشيب إن هو إلا غرور وتعلق بباطل لا يؤازره دليل . ومن ثم أرسل الشاعر ذلك القسم المؤكد واثقا من صواب حكمه ووضوح حجته ، واستطرد مرتقياً في هذه السبيل حتى أورد حجته الدامغة في البيت الأخير فلو أن للشيب مزية يفضل بها الشباب ما كان ذلك الأسف واللهف الذى يرسله ذو الشباب المولي عندما يدفع إلى عتبات المشيب . . .

وللبحتري في الإيحاء بكراهية المشيب وبشاعة منظره إبتكارات شتى ولوحات تعبيرية متقنة من أبرزها صورة إعراض الغانيات عن ذى الشيب وتحول ألحاظهن إلي أرباب القد المشوق والشعر الأسود الفاحم من مثل قوله: (٣) .

---

١) ناكرته : خادعته . البض : الرقيق الجلد الممتلىء . الوحف الشعر الكثير الأسود .

٢) يهضم : يظلم وينقص .

٣) ديوانه القصيدة ٥٥٢ .

ثنت طرفها دون المشيب ومن يشب فكل الغوانى عنه مثنية الطرف

وقوله [١] :

وصلن الغوانى حبله وهو ناشىء وقارضنه الهجران والشيب واخطه

وقوله [٢] :

ظباء ثناها الشيب وحشا وقد ترى

لريع الشباب وهى جد أوانس

وفى البيت الأخير تكشيف للصورة التي ألح عليها البحترى فى كثير من حديث الشيب والشباب فى شعره . فلقد تسبب ظهور المشيب فى لمته فى نفور الحسناوات وانصرافهن عنه ، وكأنهن الظباء الوحشيات اللائى ينفرن من الأوادم وقد كن فى ريع الشباب وغضارة الفتاء أوانس آلفات قريبات متوددات .

* * *

١) ديوانه . القصيدة ٤٩٦ .

٢) ديوانه . القصيدة ٤٥٤ .

— ٤ —

امتهن البحترى كما هو مشهور شعر المديح ، وعاش به وله ومدح حشداً كبيراً منهم الخلفاء والوزراء وكبار القادة وعمال الأقاليم ، وليس خافيا أنه لم يكن مخلصا لهؤلاء كلهم ، بل إن هناك من الوقائع ما يؤكد أنه لم يكن صادق الود لبعضهم بدليل انقلابه عليهم وهجوه لهم عندما انقلبت عليهم الدولة ولفظتهم دهاليز السياسة . كما أننا لا نستطيع أن نزعم أنه كان مافقا متكلفا فى مدائحه كلها ، بل كان له أصفياؤه من الممدوحين ، وكان هو إضافة إلى ذلك بارعاً فى حوك المدائح واصطياد المعانى المعجبة التى يزجيها لهؤلاء وهؤلاء .

غير أن الجانب الذى كان البحترى يتفنن فيه ويبدع ويرسل العنان لروحه الشاعرة وخياله المحلق ، هو تلك الافتتاحيات الغزلية التى لونها بأفانين من الصور التعبيرية البارعة . وأمدها بروافد من الأدوات الفنية من أهمها مطارحات الشيب والشباب كما ألمحنا ، ومن ثم أتت تلك الأحاديث مصورة أحاسيس البحترى وخطرات نفسه ، معبرة عن رغباته الكامنة وآماله التى لا يستطيع التصريح بها .

ولقد أتت على البحترى فترة سئم فيها الحياة فى بغداد على الرغم مما أصاب فيها من جاه وثراء ، وذلك عندما توجس شرا من أوضاع الدولة التى صارت فى ترد موئس ، وضياع ماثل . وكان البحترى فى تلك الآونة قد تاقت نفسه للابتعاد عن بغداد وسعى للاتصال بأحمد بن طولون والي مصر ووجه إليه بعضا من قصائده مادحا . ولعله كان يمهد للانتقال إلي

الواحة الجديدة التى يصبو إلي أن يستروح فى أفيائها من حرور بغداد ومكائدها وأجوائها المحفوفة بالمخاطر .

وفى قصائد البحترى فى تلك الحقبة نلمح براعته فى استخدام مطارحات الشيب والشيب فى الايحاء بما تضطرب به نفسه وما يعانيه من ضيق ، ويبدو ذلك جليا فى مدائحه لاسماعيل بن بلبل — من وزراء المعتمد — وهى مدائح يتكرر فيها إلحاح البحترى على ممدوحه فى السماح له بالانصراف إلى موطنه » منبج » ويصرح في بعضها بأنه مرغم على البقاء فى بغداد ، لايمكن من مبارحتها كأنه أسير يبحث عن الفداء .

ولنتأمل تلك القصيدة التى مدح بها اسماعيل بن بلبل وزير المعتمد فى نحو سنة ٢٦٩ هـ وكيف مزج فيها حديث الغزل والشيب بمعانى اللوعة والحسرة التى ألمت به بعد أن كان نجمه لامعاً في بغداد وكان ينادم الخلفاء والوزراء فأصبح يطلب الزلفى عند صغار العمال ... ومطلع القصيدة [1] :

عاد للصب شجوه واكتئابه بيعاد الذى يراد اقترابه
رشأ ما دنت به الدار إلا رجع البعد صده واجتنابه [2]
كم غرام لنا بألحاظ عينيـ ـه شهى إلي النفوس عذابه

ويمضى البحترى علي هذا النحو فى حديث الغزل ملمحاً إلي معاودة الأحزان والاكتئاب له ، وحرب الأيام لأمانيه وآماله ، فتبعد ما يرجو

---

١) ديوانه . القصيدة ٣٧ .
٢) الرشأ : الظبي وكنى به هنا عن محبوبه .

قربه ، وتقرب ما يتوق إلى بعاده ، وهى معان لها دلالتها فى هذا المقام ... إلى أن يقول :

قلن أين الشباب فى عقب فوت منه قولا أعيـــا على جوابه
ويموت الفتى وإن كان حيـــا حين يستكمل النفـــاد شبابه

وما أراه عنى باستكمال نفاد الشباب إلا نفاد آماله فى الحياة المريحة ، وانقباض نفسه ، وكراهيته البقاء فى بغداد . ورغبته فى الإذن له بالرحيل إلى موطنه ببلاد الشام ، وهى رغبة صرح البحترى بها فى هذه القصيدة بقوله مخاطباً ممدوحه :

أتراك الغـــداة مطلـــق ربقى مؤذن بالرحيل زمت ركابه (١)
حاجـــة لو أمرت فيهـــا بنجح قرب النازح البعيد مآبه
ليس يحلو وجـــودك الشىء تبغيه التماساً حتى يعز طلابه

فهو يصور نفسه بالمقيد المأسور الذى يطلب فك قيده ، ويومىء فى البيت الأخير إلى أن تلك الأمنية الأثيرة لديه تملك عليه نفسه وهو شديد الأمل فى تحققها متفائل بذلك ، عندئذ يصفـــو عيشه ويظفر بمطلب عزيز ناله بعد عناء .

وهذه (٢) القصيدة تشترك مع قصائد أخر طلب فيها من الوزير السماح له بالرحيل إلى وطنه ، وقد نظمها فى الآونة التى كان قد ضاق فيها بالحياة

---

١) زمت : شدت ، والربق : القيد .
٢) راجع ديوان البحترى الجزء الأول ص ١١٥ تعليق المحقق بالهامش.

فى بغداد ومدح ابن طولون راغبا فى الاتصال به . إذ يقول له [١] :

فأصبحت فى بغداد لا الظل واسع ولا العيش غض فى غضارته رطب
أأمدح عمال الطساسيج راغبا إليهم ولى بالشام مستمتع رغب [٢]

ويقول فى قصيدة أخرى مادحا بها إسماعيل بن بلبل [٣] :

لست بالملحف المنقب عن ذا ت طريق أخال غيرى يسيره
وسوى الغداة تحدى مطايا ه إلى « منبج » وترحل عيره

ويقول له فى قصيدة أخرى [٤] :

وأعتقت الرقاب فمر بعتقى إلى بلدى وأنت به جدير

وفى أخرى يقول له [٥] :

ووليت عمال السواد فولنى قرارة بيتى مدة لن أطيلها

ويبدو أن عداء قديما كان بين البحترى وأحد كتاب اسماعيل بن بلبل كان سببا فى أن يضع ذلك الكاتب العراقيل فى سبيل تلبية رغبة أبى عبادة ،

---

١) ديوانه . القصيدة ٣٩ .
٢) الطساسيج : جمع طسوج بتشديد السين كلمة فارسية وكان سواد العراق مقسما إلى ستين طسوجاً . الرغب : المتسع .
٣) ديوانه . القصيدة ٣٦١ .
٤) ديوانه . القصيدة ٣٦٢ .
٥) ديوانه . القصيدة ٦٨٧ .

يؤكد ذلك ما قاله البحترى فى هجاء ذلك الكاتب ويدعى اسرائيل النصرانى وكان أعور يقول فيه البحترى (١):

ترجى أن يتاح لنا مسير كما ترجو المفاداة الأسارى
إذا سمح الوزير لنا باذن تعرض فيه دجال النصارى

وتتسم مطارحات الشيب والشباب فى شعر البحترى لتلك المرحلة من حياته بشيوع نغمة الأسى والاغتمام والشكوى والإكثار من ابتعاث ذكريات الماضى الذى تولى ، والأيام التى تصرمت ولم يعرف الشاعر إلى عودتها سبيلا . فنراه فى إحدى مدائحه لإسماعيل بن بلبل يقول عن الشيب والشباب (٢) :

خلق العيش فى المشيب وإن كا ن نضيرا وفى الشباب جديده (٣)
ليت أن الأيام قام عليها من إذا ما انقضى زمان يعيده
ولو أن البقاء يختار فينا كان ما تهدم الليالى تشيده
شيختنى الخطوب إلا بقايا من شباب لم يبق إلا شريده
لا تنقب عن الصبا فخليق إن طلبناه أن يعز وجوده

والأبيات ذات إيحاء قوى بنبض البحترى المتوجع وشكواه الممضة من أيامه التى يعيشها ، وقد أطلق لروحه المكروبة العنان للبحث عن وسائل

---

١) ديوانه القصيدة ٢١ .
٢) ديوانه ، القصيدة ٢٩١ .
٣) الخلق بالتحريك : القديم .

تخلصه من ذلك الواقع الذى يحياه ، فيتمنى أن يقدر على دنيا الأيام أن يدبر شئونها آمر حازم يعيد ما ينقضى من مراحل سرورها وحبورها ، أو أن تتاح للانسان حرية الإختيار وتلبية الآمال إذاً لأرغم الليالي أن تشيد ما هدمته من عمره وشبابه .. ولكن شيئاً من ذلك لن يكون ، ومن ثم فان أحداث الليالي وويلاتها هى عدوه اللدود وواتره الغشوم فهي التي شيخته وبددت شبابه وطرحت آماله ، ومن ثم تنتهي به تلك التهـــويمات إلى الاصطدام بالواقع المرير فيصحو من أحلامه مخاطبا وجدانه الممزق بتلك اللهجة الحاسمة :

لا تنقب عن الصبا فخليق　　إن طلبناه أن يعز وجوده

وعلى هذا النمط من التلويح بحديث الشيب والشباب استخدم البحترى تلك الأداة الفنية ببراعة فى شعره معبراً من خلال إطارها الوجدانى عن أحاسيسه المكروبة وأناته الحائرة . وفى قصيدة أخرى من مدائحه لابن بلبل يقول فى مطلعها (١) :

إليك ما أنا من لهو ولا طرب　　منيت منى بقلب غير منقلب
ردى على الصبا إن كنت فاعـــلة　　إن الهوى ليس من شأنى ولا أربى
جاوزت حد الشباب النضر ملتفتـا　　إلى بنات الصبا يركضن فى طلبى
والشيب مهرب من جارى منيته　　ولا نجـــاء له من ذلك الهرب

---

١) ديوانه . القصيدة ٣٨ .

والمرء لو كانت « الشعرى » له وطنا صبت عليه صروف الدهر من صبب[1]

وفي هـذه الافتتاحية التي يمزج فيها البحتري الغزل بمطارحات الشيب والشباب يلمح إلي عزوفه عن اللهو والصبوة ، لإستحالة أيامه وانقباض نفسه ، وقسوة الواقع الذى يعانيه ، وفساد الأجواء التي تحيط به ، فيشعر إزاءها بالقلق والتوجس ، ولا يستروح في ظلالهـــا معنى طيبا أو لذة روحيـة .

ويبدأ البحترى نجواه الغزلية بداية ملؤها الضجر والاغـتمام بقوله : « إليك . . » ويؤكد ذلك بقوله : « منيت مـنى بقلب غير منقلب » لأن مايكابده من ضيق نفسى لا متحول له إلا برد أيامه الخوالي التى رمز لهـا بالصبا فى قوله : ردى على الصبا إن كنت فاعلة .. فقد إمتلأت نفسه يأساً ، وهو يحس إحساسا قويا بأن سروره ومتعه وإقبال دهره قد فارقه ، ولكنه أبداً مشدود إلي تلك الأيام ملتفت إليها ، وهى تلاحقه بذكرياتها وتلح على خاطره .. غير أن الشاعر يدرك بحسه المرهف الذى صقلته تجارب الحياة وعبرها أن الشيب والأفول هما الملاذ لمن فجع فى آماله وأدبرت أيامه ،ولكنه مهرب مؤقت لايلبث أن يعقبه الفناء الدائم والفراق الأبدى لمتع الحياة ولذائذها : متعها المادية والروحية معاً .

ولايخفى مافى البيت الأخير من إيحاء بثقل الرزء الذى أصيب به البحتري فى تلك الحقبة التى كره الحياة فيها فى بغداد ، فقد حاول كما يوحى قوله ـ

---

١) الشعرى : كوكب وهو أسطع الكواكب ومن أقربها إلى الأرض .
الصبب : الانحدار من علو .

الاحتراز من تلك الأحداث والروغ من حبائلها . ولكنها وقعت عليه من حيث لم يحتسب فهي قضاء محتوم وقدر نازل به لا محالة وذلك ما يشعر به قوله :

والمرء لو كانت «الشعرى» له وطنا حطت عليه صروف الدهر من صبب

وعندما نتفرس الأبيات التالية فى القصيدة التي انتقل فيها البحترى إلى التلهي بذكريات أيامه الخوالى . نراه يستوحي الخواطر التي تلح عليه ، خواطر الانطلاق التنقل هنا وهناك في حرية وإسماح فنرى قيثارته تسبقه إلى العزف على ذلك اللحن الأثير إلى نفسه إذ يقول :

قد أقذف العيس فى ليل كأن له رشيا من النور أو أرضا من العشب[1]

حتى إذا ماانجلت أخراه عن أفق مضمخ بالصبـــاح الورد مختضب

أوردت صادية الآمال فانصرفت بريهـا وأخـذت النجح من كثب[2]

وبذلك يتأكد لنا صواب الملحظ الذى أومأت إليه وهو أن البحترى كان يتخذ من الافتتاحية الغزلية معرضا للتعبير عن أحاسيسه وأمانيه . ويوظف فى سبيل أداء تلك الايحاءات الوجدانية عدداً من الأدوات الفنية من أهمها حديث الشيب والشباب الذى برع شاعرنا فى استخراج لوحات معجبات من تقليباته من مثل قوله فى افتتاحية قصيدة[3] يمدح بها ابن بلبل:

---

١) النور : الزهر الأبيض .
٢) الصادية : العطشي . الكثب : القرب .
٣) ديوانه . القصيدر ٤٨٢

ترك السـواد للابسيه وبيضا ونضا مـن الستين عنـه مانضا
وشآه أغيـد فى تصرف لحظه مرض أعل به القلوب وأمرضا (١)
وكأنه ألـفى الصبـا وجـديده دينـا دنا ميقاته أن يقتضى
أسيان أثرى من جوى وصبابة
وأساف من وصـل الحسان وأنفضا (٢)
كلف يكفكف عبرة مهراقة أسفا على عهـد الشباب ومانقضي
عـدد تكامل للذهاب مجيئه وإذا مضى الشيء حان فقد مضي

فانظر كم فى أبياته تلك من لوعة ؟ ! وكم تنبيء عنه من يأس محدق ، لاتصحبه بادرة أمل ؟ ! فقد خلع الصب الواله مع بلوغه الستين سروره ونشاطه وهناءه ومتعته ، وأيقن أنه لن يستطيع مجاراه الشباب فى صبواتهم ولهوهم ، منافستهم فى إستيباء قلوب الحسناوات ، والظفر بودهن ووصلهن ، وقنع بأنه لابد أن يخسر الرهان ، وأن حظه سيكون الجوى والآلام فلا غرو أن وطن صاحبنا نفسه على تجرع الآلام وكفكفة العبرات وأصاخ لصوت العقل الذى يغلب جموحه وهواه فيقيس وينظر ويتأمل ويحكم ، ويرصد ويستنتج ، وينتهي إلى تلك القناعة المؤلمة :

وإذا مضي الشيء حان فقد مضي

* * *

---

١) شآه : شاقه . أعل : من العلة .

٢) أسيان : حزين . أساف : ذهب ماله وضاعت ثروته . أنفضا : فنى زاده وهلك ماله .

- ٥ -

وثمة جانب مهم فى مطارحات الشيب والشباب فى شعر البحترى هو : بكاء الشباب، والحنين إلى أيامه الخوالى، والدفاع عن طيشه ونزقه وجموحه وهوجه ، . . ويبدو البحترى فى هذا الجانب أرق تناولا ، وأصدق لهجة ، وأصفى ديباجة .

وكأنه بعد أن افتقد جاه الشباب وسروره ، ونشاطه وغضارته قد عاين غروب العمر وأفوله ، ودغموم الكبر وهمومه فألهب ذلك كله أفراس الشعر فى وجدانه فانطلقت تعدو وتزمجر ، وتهدر وتجلجل ، مطرية أيام الشباب ، مثنية على ريعانه صاخبة على كل من يحاول النيل منه مخرسة كل متقول عليه فى ثورة عارمة وهياج مدو ، لايعرف التروى ، ولايصيخ لنداء العقل .

ويتبدى فى هذه النوعية من شعر البحترى صدق التعبير ، وعمق التجربة ويكاد القارىء يلمس فيها خفقان قلبه وحرارة أنفاسه ، فهى من أدق شعر الشيب والشباب فى ديوان البحترى وأعمقه دلالة على ميوله ونزعاته ، وقد ورد أكثرها ـ كما هى عادته ـ فى افتتاحيات قصائده المدحية وبعضها أتى فى نسق مستقل وفى شكل مقطوعة شعرية مقصورة على بكاء الشباب مثل قوله : (١)

جلوت مرآتى فيالينتى تركتها لم أجل عنها الصدا

---

١) ديوانه . القصيدة ٢٣ .

كي لا أرى فيها البياض الذى
في الرأس والعارض منى بدا

ياحسرتا أين الشباب الذى علي تعديه المشيب اعتدى
شبت فما أنفك من حسرة والشيب فى الرأس رسول الردى
إن مدى العمر قريب فما بقاء نفسى بعد قرب المدى

والمقطوعة باكية كما نلمح ولكن نبرة الشاعر فيها ـ على الرغم من حسرته وأساه ـ هادئة نوعا ما ، فهى بكاء صامت ، وحزن مكبوت ، ووجوم مذهل ، إلا أن الشاعر لم يعد فيها تصوير البلاء الذى نزل به والنذير المشئوم الذى جذبه بقسوة ليضعه أمام نهايته المحتومه . بيد أن الثورة الصاخبة التى أشرت إلى أنها طابع هذا النمط من شعر البحترى تظهر جلية عندما تدور فى مخيلته المساجلات بين الشيب والشباب فينتصر الشاعر فى حماس زاخر للشباب ، وينبرى للدفاع عنه بمثل قوله : (١)

إنما الغي أن يكون رشيدا
فانقصا من ملامه أو فزيدا

خلياه وجدة اللهو مادا م رداء الشباب غضا جديدا
إن أيامه من البيض بيض ما رأين المفارق السود سودا

وتأمل معي هذا المصراع الذى يقذف به البحترى أسماع لائميه ويسفه به دعاواهم وتقريراتهم صائحا بهم فى مطلع قصيدته : « إنما الغي أن يكون

---

١) ديوانه القصيدة ٢٤٧ .

رشيداً » أى أن ماتعده رشداً وسداداً وعقلا ورجحانا هو الضلال والبوار والخسران والانخداع فخليق بمن غدا فى ريعان الشباب أن يأخذ حظه من اللهو والصبوة والهوى والمتعة ، فتلك المرحلة هى فرصته التى لن يمكن من نيلها بعد أن يفارقه شبابه ويستحيل إهابه .

ويرتبط الشباب فى مخيلة « البحترى » دوما بالحياة العفوية الخالية من الكدر ، الحافلة بالسرور النفسى المنبعث من فراغ البال واكتمال النشاط . وإنفساح الآمال ، ومن هنا كان البحترى دائب البحث عن تلك المعانى فى كهولته وشيخوخته دون جدوى ، فأتت أشعاره التى عبر بها عن تلك الأحاسيس لاهبة محمومة ، لقد تحرمت تلك الأيام العذاب ، وتصرم معها السرور والراحة وفراغ البال ، واستحدثت له أيامه الجدد نعوتا فخمة ، وأبعاداً ذائعة ، ولكنها انتزعت منه — على الرغم من ذلك — سروره الذى كان ينعم به فى شبابه ، ويحسه فى نفسه إحساسا كاملا . وفى قصيدة للبحترى مدح بها الفتح بن خاقان مطلعها :(١)

ضمان على عينيـــك أنى لا أسلو وأن فؤادى من جوى بك لايخلو

وهو مطلع بديع على عهدنا بالبحترى من عقد الصلات الوثيقات بين معانيه الشعرية وايحاءاتها التصويرية — نراه يعبر عن إدراكه لمرارة افتقاد الشباب بقوله :

عقلت فودعت التصابى وإنما تصرم لهو المرء أن يكمل العقل
أرى الحلم بؤسى فى المعيشة للفتى ولاعيش إلا ماحباك به الجهل

---

١) ديوانه . القصيدة ٦٣٣ .

وتأمل معي ذلك الربط الرمزى البديع بين إشارته فى المطلع الغزلي إلى عدم النسيان وبقاء أوار الحب فى فؤاده وبين حديثه هنا عن توديع الصبا فهو -إذاً- يودع وداع الذاكر للعهد المشدود الى حبيبه، المفجوع فى بعاده، المكره علي فراقه .

ويتمنى البحترى لو يتاح لمن ودع عهد الشباب أن يغنم بعض لذائذه ، أو يستعير زيه ، ولكنه يصطدم بتقاليد المجتمع التي لا تسيغ ذلك ولاتعذر ذا الشيب إن هو اتشح بلباس الشباب بل تتناوشه بألسنة حداد ، فيتراجع متحسراً شادياً بمثل قوله : (١)

وما يعذر الموسوم بالشيب أن يرى معار لباس للتصابى ولاوسم
تخبرنى أيامى الحدث أننى تركت السرور عند أيامى القدم

وتتكرر فى شعر البحترى هذه النغمة الصريحة فى الحسرة على الشباب وأيامه المترعات بالسرور ، المتشياب باللذة وفراغ القلب من الهموم ، وتفضيل ذلك على زمن المشيب علي الرغم مما بلغ فيه الشاعر من مجد وثراء، ونباهة وذيوع صوت وله فى إحدى مدائحه للعلاء بن صاعد قصيدة مطلعها : (٢)

أحاجيك هل للحب كالدار تجمع وللحائم الظمآن كالماء ينقع

أطلق فيها العنان لشاعريته معبرا عن أحاسيسه الذاتية ، ناذا العديد من

---

١) ديوانه القصيدة ٧٧٠ .

٢) ديوانه . القصيدة ٥٠٦ .

٢) أحاجيك : أختبر حجاك أى عقلك وفطنتك ، ينقع يروى .

الزفرات المكروبة ، وهي من الشعر الذى قاله البحترى فى مرحلة متأخرة من عمره ، ومن ثم تصطبغ شكواه فيها بصبغة آسية من مثل قوله :

وريع الشباب آض نهباً مفرقاً وكان قديما وهو غنم مجمع (١)

وقوله فى نهاية القصيدة – بعد أن بذل لممدوحه مافاضت به قريحته – باكيا حاله فى مشيبه ، موازنا بين ماضيه الذى كان حافلا بالأخذ والعطاء والوصال والهجران ، والصد والإقبال ، والرضى والشكوى .... ، وبين حاضره الذى خلا من ذلك كله .

أصح فلا أمنى بشكو من الهوى وأصحو فلا أصبو ولا أتولع

فتذهب أيـــامى التي تستفزنى بطالاتها إنى إلى الله أرجـع

أثائب حـلم أم أفـــول شبيبة

خلت وأتى من دونها الشيب أجمـع (٢)

وما خير يومى الذى أزع الصبا له وأحـلى بالنهى وأمتع (٣)

ألا ماأقسي تلك الأحاسيس التي أترعت بهـا نفس البحترى وماأصدق تلك الخواطر التي تزاحمت على قيثارته المشجية فوقـع على تموجاتها أنغاماً سواحر ، فى أداء مبدع ، وتناول فنى بارع ، أبرز مايميزه الصدق : صدق المعاناة ، وصدق الإحساس ، وصدق التعبير .

---

١) الريع : أول الشيء ، آض : عاد .

٢) الثائب : العائد . الحلم : الأناة والعقل .

٣) أزع : أكف . النهى : العقل لأنه ينهى عن القبيح .

ويدخل فى هذا الباب من مطارحات الشيب والشباب فى شعر البحترى تصويره لكراهية المشيب ، واغتمامه لذلك المخالط المنبوذ ، والوافد الممجوج فى قوله : (١)

وددت بياض السيف يوم لقيتنى مكان بياض الشيب كان بمفرق

إلي هـذا المدى بلغت بالبحترى كراهيته للشيب ، وحرصه على إخفائه وعـــدم رؤية ريبات الهوى لفلتاته فى مفرقه ... ؟ ! أجل. فاذ ا أضفنا إلي ذلك أن هذا البيت من قصيدة قالها البحترى وهو فى نحو الأربعين من عمره تأكد لنا صدق تعبير أبي عبادة عن ذات نفسه وأطواء قلبه ، فهى مرحلة بدء الإبتلاء بالشيب ومعها تكون مدافعته والتمرد عليه ، والمبالغة فى إخفائه .

* * *

١) ديوانه القصيدة ٥٨١ .

- ٦ -

وتمضي بالبحتري رحلة السنين فيعلوه المشيب ، وتترك رحلة العمر بصماتها في هيئته وقواه ، فيضطر اضطراراً إلى الانصراف عن صبواته والعزوف عن لهوه وفتكاته ، أو بالأحرى لا يقدر على المجاهرة بها أو الإنطلاق مع ذوي الشباب الغض والفتاء الناضر في مقارفتها والتمادي في جموحها ، ولكنه يختلسها من حين لآخر في غيبة عن أعين الرقباء ، وعندما تجمعه صبواته مع الفتيان العابثين يعجبون من أمره ، وتدهشهم جرأته وسبقه لهم في اللهو والصبوة فلا يرون فرقا بينهم وبينه ويحسونه شاباً على الرغم من ظهور المشيب في ملامحه وسحنته ، وتتراءى هذه الخواطر كلها في شعر أبي عبادة لوحات معبرة ، ودفقات حانية . تجتر ذكريات الصبا وصبوات الشباب ، وتفيض لوعة على افتقاد جاه الشباب ، وإن كانت تتعزى بألوان من السلوى فهو وإن شمله الشيب وأنهك قواه فقلبه ممتلىء بروح الشباب ونزعاته وهو وإن حجب كبر السن عنه كثيراً من المتعة والسرور فطالما كرع من أنينها في شبابه ، وطالما عب ونهل من كئوس خمرها الصرف ورضابها الشهي .

وتأمله يقول متعزيا عن شبابه قانعا بحظه في المشيب [1] :

كانت فنون بطالة فتقطعت ... عن هجر غانية ووخط مشيب

إما دنوت من السلو مرويا ... فيه وبعت من الشباب نصيبي

فلربما لبيت داعية الصبا ... وعصيت من عزل ومن تأنيب

---

١) ديوانه . القصيدة ٨١ .

فهو يذكر أيامه الخوالي وما حفلت به من ألوان المتع والمسرات ثم انقضت مخلفة وراءها هجر الأحبة جثوم المشيب ، ويعتذر عن سكونه وهدوئه ، وقبول قسمه من المشيب بديلا عن ريع الشباب ونشاطه ... ويخفف من وقع تلك الصدمة الخاسرة والبدل المغبون أنه طالما أطلق لشهواته العنان في زمن شبابه ، إبان فتائه ، مشيحا عن أقوال اللائمين ضاربا صفحا عن تأنيب المؤنبين .

وانظره في قصيدة أخرى يتعلل عن إخفاقه في الهوى ، بأن العمر قد خانه وحكم على محاولاته بالخسران ، فلم ير غير الصدود ، ولم يعاين سوى الإعراض ، وهو على الرغم من ذلك كله يتعلق بأسباب الأماني علّه يسعد بالوصال يوماً ما . يقول (١) :

وحظك من ليلى ولا حظ عندها سوى صدها من غادة واجتنابها

يفاوت من تأليف شعبي وشعبها تناهى شبابي وابتداء شبابها

عسى بك أن تدنو من الوصل بعدما

تباعدت من أسبابه وعسى بهـــا

ويتجاسر البحتري في بعض أحواله وقد علاه المشيب فيـــنزع إلى صبوات الشباب ، وتتوق نفسه إلى مغالبة وقار الشيب وتزمته فيجمح على الرغم منه . وتتناوله ألسنة باللمز والاستنكار وعبثا يدافع عن نفسه ويختلق المعاذير فتراه مرة يقول (٢) :

---

١) ديوانه ، القصيدة ٧٥ .

٢) ديوانه القصيدة ٤٤ .

لايرعك المشيب منى فانى ماثناني عن التصابى المشيب

ومرة يقول : (١)

حب الصبا لاحب إلا وهو لا يبقى لمدته وأنت لزام

شيبت عن صغر ولم يصغر هوى

نفسي فقال الجذع أنت غلام (٢)

وتأمل لوعة البحترى على رحيل الشباب وتصويره بكنز ثمين كان مملوكا له ، وكان هو سعيداً بثرائه ، مترعاً من فيض بهائه ، ثم نقد ذلك الكنز النفيس وتبدد من يديه ولكنه أبداً ماثل بين ناظريه ، بنفائسه وجواهره ، وطرائفه وكرائمه . يقول من مطلع قصيدة له مدحيه : (٣)

من رقبة أدع الزيارة عامدا وأصد عنك وعن ديارك حائدا

حتى أخال من الصبابة بارئا خلواً وإن كنت المعنى الواجدا

فكأنما كان الشباب وديعة كنزا غنيت به فأصبح نافدا

وتتصادم فى مخيلة البحترى أطياف الشباب بروائه الساحر وجاذبيته المشوقة مع أهوال المشيب وأثقاله ، فتتقد شاعريته برماً بالمشيب وسخطا

---

١) ديوانه القصيدة ٧٩٩ .

٢) الجذع بالتحريك : الشاب الحدث . هذا فى الأصل وحقق العرى الرواية بأن تكون الجذع بصيغة الجمع كما قالوا فى أسد أسد . (عبث الوليد ص ٢١٨) .

٣) ديوانه القصيدة ٣٢٨ .

على ايله الدامس ، وظلامه المطبق الذى لاأمل فى انقشاعه . ولامعين على وحشته وصعدائه ، ويتبدى الشباب في تلك الليالى الحوالك زائراً محبوبا وفد علي الإنسان ثم مضي علي عجل مخلفا وراءه حسرة باقيـــة ولوعة موصولة . يقول : (١)

مـتى لاح برق أو بدا طلل قفر جرى مستهل لابكىء ولانزر
وما الشوق إلا لوعـة إثر لوعة وغزر من الآماق يتبعها غزر
فلا تذكر أعهـــد التصابى فانه
تقضي ولم نشعر به ذلك العصر !!

ويقول من قصيدة أخرى : (٢)

وأضللت حلمى فالتفت إلي الصبا
سفاها وقد جزت الشباب مراحلا
فلله أيـام الـشباب وحسن مـا فعلن بنا لو لم يكن قلائلا

وتتوارد علي وجدان البحترى صور بينونة الشباب المتسرعة ورحيله الفاجـع . فتذهب شاعريته في تبرير ذلك مذاهب شتى أهو عارية لابد أن تسترد أم قرض حان أداؤه :

سألتـنى عن الشباب كأن لم تدر أن الشباب قرض يؤدى
لم يبن عـن زهاده منـه لكن آن للمستعـار ان يسـتردا

---

١) ديوانه القصيدة ٣٣٩ .
٢) ديوانه . القصيدة ٦٣٠ .

ماذ خرت الدموع أبكيه إلا لفراق مواشك إن أجداً [١]

وتستوحي شاعرية البحترى من الحنين الجارف إلى أيام الشباب واللهفة على ذكرياته المواضى فيضا من المعانى والخواطر . والصور والمفارقات ، والتساؤلات الحائرة التى لاتعرف العقول المتأملة كنه ماتنطوى عليه من ظواهر حياة الإنسان وأسرار وجوده وفنائه ، وإقباله وإدباره وسروره وإنقباضه ، وفجيعته وعزائه وضعفه وتجلده .

* * *

وهكذا رأينا مطارحات الشيب والشباب فى شعر البحترى معارض حافلات بالأداء المعبر ، والحاسة الفنية المرتقية ، والبراعة فى توليد المعانى ، وإبداع الصور ، وإثراء القصيدة العربية بروافد من الأدوات الفنية التى ينفث الشاعر من خلالها خواطره فى تداعياتها النابعة من أحاسيسه ، المعبرة عن طيات نفسه ، وتموجات وجدانه .

وقد رأينا أنه وظف حديث الشيب والشباب فى التعبير عن مجاوزة عبث الصبا وبطالته ، وبلوغ مراتب ذوى الشيب من العقلاء المجربين . ووصفه كذلك فى إثراء الإفتتاحيات الغزلية بالمعانى الطريفة والحوار المتنامى بين هواتف الشيب والشباب وبذلك ارتفع بهذه الافتتاحيات عن التكرار والإملال ، وعبر بهذه المطارحات في مرحلة مهمة من مراحل حياته عن ضيقه وسخطه وحسرته على أيامه التى مضت وكان فيها قد بلغ أوج مايصبو اليه شاعر عندما كان نديما للمتوكل ووزيره الفتح بن خاقان ، كما استطاع

---

١) ديوانه . القصيدة ٢٤٠ .

البحترى أن ينفذ من خلال أحاديث الشيب والشباب إلي إبراز مفارقات هاتين المرحلتين فى حياة الإنسان وتناقضاتها الحادة ...

وينتهى بنا هذا التجوال فى هذا الباب المهم من أبواب شعر البحترى إلى تقرير حقيقة رأيناها ماثلة من خلال ما عرضناه آنفا وهى أن الشاعر عندما أبدع هذا الحشد الكبير من شعر الشيب والشباب لم يكن يقصد دلالته القريبة المباشرة ، وإنما إستخدمه إستخداما رمزيا ، وجعله أداة فنية بث من خلالها مشاعره وعبر عن رؤاه الخاصة وتهويماته النفسية ، وبرع فى الإمساك بخيوط المواقف المؤثرة والصور المفعمة بالدلالات العميقة ، ويقودنا تقرير تلك الحقيقة إلى لفت أنظار الباحثين فى الشعر العربى إلى هذه الظاهرة فى شعر البحترى وحث هممهم لمزيد من الدرس والتأمل لتلك الجوانب الوجدانية المهمة فى تراثنا الشعرى بغية الكشف عن دلالاتها الفنية، وأهميتها فى إلقاء الضوء على طبيعة الأداء الفنى فى شعرنا ، وإبراز معالم الأصالة ، ومكامن البراعة فى ديوان الشعر العربى الموروث .

* * *

ولا يفوتنى أن أطوى هذه الصفحات دون الإشارة إلى جانب من جوانب براعة البحترى فى شعر الشيب والشباب ألا وهو جانب التعبير الحافل بصنوف الإجادة المترع من كئوس السحر البيانى الأخاذ .

فالى جانب عمق التجربة وإتقاد النفس الشاعرة أضفى البحترى على لوحاته فيضاً من عبقريته المبدعة . وافتن فى إبراز طاقاته الفنية ومهاراته التعبيرية التي تؤكد امتلاكه لمفاتيح البراعة الفنية من الصورة المبتكرة ، والعبارة

الموحية ، والايقاع العذب ، يطول بنا القول لو عمدنا إلى سائرماقاله البحترى فى هذا الباب بالتحليل والتعليق ، ومن ثم سأكتفى بالإشارة إلى لمحات من ذلك . وليس خافيا عن إدراكنا أن وقع الأثر الفنى فى نفس متلقيه يتم بصورة متكاملة يتعاون على أدائها التئام الشكل مع المضمون وتصاقب المحتوى مع الصورة ، وإذا كنا قد سلطنا الأضواء فيما مضى من الصفحات على دلالات المضمون وإيحاءاته فسنعنى فى السطور البواقى من هذه الدراسة بتأمل الصورة التي نقل الشاعر إلينا من خلالها ما أراد من دلالات بعيدة الأثر عميقة المغزى .

والبحترى يتميز عامة بأنه فارس العبارة الناصعة والصورة الشعرية الوضيئة ، والجرس الإيقاعي المتناغم ، وقد عرف له الأقدمون ذلك ، سئل ابو العلاء المعرى عن أبى تمام والبحترى والمتنبي أيهما اشعر فقال للسائل : أبو تمام والمتنبي حكيمان ، والشاعر البحترى [1] .

لقد وهب أبو عبادة ملكة البيان العذب ، وعرف كيف يستحوذ على إعجاب سامعيه ، ويشد ألبابهم إليه بلفتاته البارعة ، وصوره القريبة إلى النفوس ، بعيداً عن التعقيد والغموض ، ولئن كان خصوم البحترى يعيبون عليه سهولة صوره وقرب تشبيهاته ويتهمون شاعريته بالسطحية وضحالة الفكر ـ فان إصابة القصد بالكلام الواضح ، والخيال القريب يعد فى تصورنا من آيات البراعة وسمات العبقرية ، وقد رأينا للبحترى كثيراً من التجارب الشعرية الحافلة بالتأمل وبعد النظر ودقة الاستبطان ، ولكنه لم

---

١) وفيات الأعيان ٦ ٢٣ .

يكن يكد خاطره ، او ممن تبدو علي صفحة نتاجه آثار التعمل او الجهد ، فشاعريته أبداً مسمحة ، ومعانيه مواتية ، وصوره طيعة ، كأنها ماثلة فى خلده ينقلها إلي اللغة في عبارات مصوغة علي وزان المعانى ، لا يشوبها غموض ولا يقلل من ألقها ونصاعتها كدر .

ولو عدنا إلي بعض ما اوردناه في الصفحات المتقدمة من مثل قوله :

امـــولعة بالبين رب تفـــرق جرحت به قلبا بحبك مولعـــا

رمن عاثر بالمشيب ضاعف وجده علي وجده ان لم تقولي له : لعا

فأثقـل علينـــا بالمشيب مسلما وأحبب إلينا بالمشيب مودعا

لرأينا في صياغته الشعرية أفانين من البراعة ، وضروباً من التشكيل الفنى للصور لايهتدى لوضع لمساته الدقيقة إلارسام ماهر يعرف كيف يلتقط المشاهد المؤثرة ، وينقل إلي صفحة شعره الأحاسيس المنعمة فى إيقـــاع متناغم وينظم فرائدها فى عقد بديع . وتأمل صورة فتاته التى يعاتبها علي ولوعها بالبين وافتتانها بالفراق ذلك الولوع الذى يتقطع له قلب حبيبها المولع بقربها الهائم الحالم بوصالها ، ولكنها عجائب المقادير تجعل ولوعها بالبعاد والتأبي وولوعه بالقرب والوصال . ويظل العاشق المتيم يعيش على امل الظفر بما يهوى او بمن يهوى ولكن ايام شبابه تتصرم ، ويهجم عليه المشيب ، فتتعثر خطاه ، ويقفر دربه ، ويقضى عليه بالحرمان فيفقد الأنيس ، ويحرم المؤاسى ، ولا يجد الصدر الحنون الذى يلقى عليه رأسه من عناء الكروب ، وحرب السنين – إنها صورة رائعـــة تلك التى أبدعها خيال البحترى : صورة العـاثر بالشيب الذى لم يجد من يواسيه او يدعوله

بالسلامة وينهضه من العثار وهو صورة مستمدة من حياة العربي وترحلاته في البوادي وإستخدامه للراحلة في أسفاره ولكننا عندما نستحضر ملابسات هذه الصورة ندرك مقدار القوة المتخيله لدى البحترى ومبلغ ما كانت تتمتع به من شفافية وإجادة إبتكار.

وعندما نتأمل قول البحترى في مطلع قصيدته التي يقول فيها :

في الشيب زجر له لو كان ينزجر

وواعظ منه لولا انه حجر

ابيض ما اسود من فوديه وإرتجعت جلية الصبح ما قد اغفل السحر

وللفتي مهلة في الحب واسعة ما لم يمت في نواحي رأسه الشعر

نجد عجباً في امر هذا العندل الصداح الذى يشدو بهذا الغناء المطرب ، والترجيع الشجي ، وقد ساق الأسلوب مساق التجريد فكأنه يحكي ويسرد ويقص وهو في حقيقة الأمر يندب حظه ويصور مأساة نفسه المترعة بالأسى ، وهو أسلوب يمر عليه القدامى مروراً عابرا ولكنه عند إدامة النظر ينطوى على كثير من الدلالات النفسية الدقيقة ، إذ يتيح للشاعر ان يسترسل في التعبير عن خواطره واحاسيسه ، ويشرك متلقي فنه معه في موقفه وكأنه يستعديه علي جموح نفسه وإستحكام هواه وإعتلال صبوته ، وفي ذلك يمهد لابتعاث إشفاق قرائه وسامعيه على ذى الشيب الذى يصوره الشاعر عنيداً متأبياً لا يقف عند حد ولا يردعه زجر ، ولا يجدى معه وعظ ، ولا يكاد يلتفت لنصح وكأنه حجر لا يحس أو جماد لا ينقاد.

وفي ابياته التي اوردناه فيما مضى والتي يقول فيها متحسراً علي بينونة

الشباب ردخول الشاعر إلي حومة المشيب :

جاوزت حد الشباب النضى ملتفتـا إلي بنات الصبا يركضن فى طلبي
والشيب مهـرب من جارى منيته ولا نجـاء له من ذلك الهرب

تطالعنا تلك الصورة الرائعة التي تدل علي ثراء شاعرية البحترى وعظمتها، وكأن حياة الإنسان رحلة لاتهدأ ، وإنتقال دائم من مرحلة إلي مرحلة ، عبر أطوار متعاقبة ، وقد أدرك الشاعر انه جاوز مرحلة الشباب النضر ، وذلفت به رواحل دهره إلي صحراوات المشيب المجدبة ، التي انكر مكانه فيها ، وتلفت باحثا عن بنات صباه ، فآلمه أن رآها تركض فى إثره وتحاول اللحاق به دون جدوى ، وقد حاول صاحبنا أن يبحث له عن مأوى فلم يجد إلا الشيب ذلك المهرب المؤقت الذى يلجأ إليه من طادته منيته ، وهى محاولة يائسة لأن وقوعه فى قبضة المنية لا مفر منه ...

فانظر كم حلقت شاعرية البحترى فى تصوير مطارحات الشيب والشباب ! وكم ابدعت فى تلوين مضمون الشعر وشكله وصورته ومحتواه !!

وعلي وعد بلقاء مع شاعر آخر من شعرائنا القدامى الذين عنوا بالكلام علي الشباب والشيب فى شعرهم أدعك ـ عزيزى القارىء ـ راجيا أن أكون قدمت في هذه الدراسة الموجزة ما يحسن موقعه لديك . وبالله التوفيق ؟

المصادر والمراجع

١ ـ الأغانى ، لأبى الفرج الأصفهانى .
٢ ـ امالى المرتضى (غرر الفوائد ودرر القلائد) .
٣ ـ تاريخ بغداد ، البغدادى .
٤ ـ ديوان البحترى ، تحقيق حسن كامل الصيرفى ، ط دار المعارف الثالثة .
٥ ـ زهر الآداب وثمر الألباب ، الحصرى القيروانى .
٦ ـ الشهاب فى الشيب والشباب ، الشريف المرتضى .
٧ ـ الشباب الشيب فى الشعر العربى ، د. عبد الرحمن هيبة . ط الهيئة المصرية .
٨ ـ الشيب والشباب فى الأدب العربى ، محمد حسن الكبتى .
٩ ـ عبث الوليد ، لأبى العلاء المعرى ، تحقيق محمد عبد الله المدنى .
١٠ ـ العصر العباسى الثانى ، د. شوقى ضيف ، ط دار المعارف . الرابعة .
١١ ـ الفن ومذاهبه في الشعر العربى ، د. شوقى ضيف .
١٢ ـ معجم الأدباء ، ياقوت الحموى ، ط دار الفكر الثالثة .
١٣ ـ الموازنة بين ابى تمام والبحترى للامدى ، ط دار المعارف الرابعة .
١٤ ـ نقد الموازنة بين الطائيين ، د. محمد رشاد صالح ط دار غريب القاهرة .
١٥ ـ وفيات الأعيان لابن خلكان ، تحقيق إحسان عباس .